الفصل الثالث

إيحاءات الوطن العربي
ونشوء المسرح اليوناني

لا يخفى ما للمسرح من أثر في حياة المجتمع للدور الذي يؤديه في التوجيه والترفيه والنقد أو الهيمنة على أفكار الناس.

تنسب معظم المصادر أمر ابتداع المسرح ونشوئه إلى اليونان «لعبقريتهم»، أو «بما انفردت به العقلية الإغريقية»[1]! لا لمبررات أخرى حسب كاتب عربي لا أجنبي.

على أي حال، إنه مما لا شك فيه أن حقبة الحضارة الأوروبية، المتأخرة زمناً عن تلك التي نمت وترعرعت في الوطن العربي والصين والهند، تحدوا بالأوروبيين لأن يسموا اليونان، وبالتالي أنفسهم، «بالسمو» و «العبقرية»، كما يمنحون ذاتهم سمة القادة الأشداء والفاتحين، في حين ليس أهل حضارات سواهم إلا راكضين وراء الابتذال طلباً للجنة التي «يرثها الجبناء»[2]!

على أي حال، إننا حينما نأتي إلى نشوء المسرح، فهل هناك نقاط تبرر إرجاع عناصره إلى الحضارات التي سادت في الوطن العربي؟

قبل أن نجيب عن السؤال المذكور لنسال: ما هو المسرح؟

١- أحمد محمود صبحي؛ في فلسفة الحضارة - الحضارة الإغريقية، مصر ص 81، ص 127.

٢- ديورانت، ول؛ قصة الحضارة - الهند وجيرانها، (ترجمة محمد نجيب ميخائيل)، مصر 1957، ط 2، ج 3، م 1، ص 20.

المسرح محل متواضع تؤدى فيه أدوار معينة. ولكن حسب التعريف المذكور يمكن السؤال: هل الدور سبق المكان المحدد أم أن المكان المنتخب حقق ابتداع الأدوار؟

ليس هناك من إنسان يفكر في نشوء عناصر الحضارة وانسيابها أو تطورها بإمكانه أن يفترض أن المكان المحدد هو السابق للأدوار التي تؤدَّى فيه، لسبب بسيط هو أن الأماكن المحددة بسياج وجدران موجودة منذ عرف الإنسان السكن في قرى ثم في مدن متواضعة، ومن ثم فإن الأدوار التي تؤدى في الأمكنة المحددة هي الأسبق. ومن الواضح أن الأدوار ترتبط بعناصر كثيرة، كالقصة وشخصياتها وما يرتبط بهم من ملابس وبيئة وفعاليات كالموسيقى والغناء والرقص أو العويل والنحيب.

نستنتج مما سبق أن المسرح لذاته ليس أكثر من عنصر، في حين أن ما يؤدى فيه من عناصر عديدة، خبرها الإنسان عبر عدة آلاف من السنين. وبالتالي فإن المسرح ليس له معنى من ذاته، وإن ما يعرفه الأدوار التي تؤدي فيه، لذا فإن الحديث ينبغي أن يتركز على فكرة المسرح لا المسرح بذاته.

لقد سبقت الإشارة إلى أن أساطير العراق وسوريا ومصر غزت عالم اليونان، ولاقت هناك بعض التحوير والمزج بعناصر أخرى في بعض الأمثلة. وقد كان في مقدمة الأساطير قصة تموز وعشتار بتفاصيلها، و «كان الحزن على موت ديونيسوس والاحتفال والسرور ببعثه أساس طقوس دينية واسعة الانتشار بين اليونان. فقد كانت النساء اليونانيات يصعدن التلال في فصل الربيع، حيث تزهو الكروم ليقابلن الإله حين يولد من جديد. وكن يقضين يومين كاملين يحتسين فيهما الخمر بلا حساب»[1]. إذاً لقد نالت قصة تموز (أدون) أو أدونيسوس استحسان الفكر اليوناني، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن التفاصيل الأخرى المرتبطة بها قد توغلت بشكل ملحوظ، ففي أثينا كان الملك يتزوج من عذراء أثينية يتم اختيارها كل سنة في اليوم الثاني عشر من شباط (أنثيستوريون) ويتزوجها هذا الملك في زواج مقدس في الإكروبوليس في غرفة معدة لهذا الغرض يطلق عليها اسم بوكدليون أي حضيرة الثور، التي

١- ديورانت؛ قصة الحضارة، (ترجمة محمد سعيد بدران)، القاهرة 1969، ج 1، م 2، ص 338-339.

كانت في سابق عهدها سكناً ملكياً[١]. ومن الجلي أن زواج الملك من كاهنة عرفته تقاليد العراق القديم، وذلك عند حلول الربيع مع إطلالة أول هلال في نيسان. أما تسمية غرفة الزواج بحضرة الثور، فيبدو أن لها علاقة بالتقليد العراقي القديم، إذ كان الزواج المذكور يتم في دخول الشمس برج الثور بما يعرف بالزواج المقدّس.

إذاً كانت قصة الربيع وتجدد الحياة المحور الأساس في الفكر اليوناني كما في الوطن العربي. ولكن ما هي علاقة هذه الأسطورة بنشوء المسرح؟

«تكمن الأصول الأولى للمسرح اليوناني في الاحتفالات الدينية التي تقام في المناطق المختلفة في بلاد اليونان التي كانت تدور حول عقيدة الإله ديونيسوس Dionysos (وهو اسم آخر للإله باخوس Bakkhos) الذي كان إلهاً للحصاد والثمار والكروم، وإن كان هذا قد اشتهر بصفته إلهاً للخمرة»[٢]. ومن ثم فإن نشوء المسرح يرتبط بتلك القصة المؤثرة التي ابتدعها من سكن على أرض الوطن العربي. ولم يقتصر الأمر على ذلك، إذ إن «جميع المسرحيات اليونانية الدرامية التي كانت تعقد في أثينا، وكانت تلك المسابقات تعقد تكريماً للإله ديونيسوس (المسمى أيضاً باخوس)، وهو الذي كان إله المسرح، علاوة على كونه إله الخمر»[٣].

إذاً لقد استهدفت تلك «الاحتفالات تصوير أسطورة هذا الإله، وهي الأسطورة التي اعتقد اليونان أنها تعبير عن الأمة وأفراحها... وقد كان هذان العنصران هما الأصول الأولى للمسرح اليوناني. فالشعائر الجادة التي ينشد فيها المواطنون أناشيد تبين تقلبات الحياة وخضوعها لقوة أكبر منها تسيطر عليها بما يتصل بذلك العالم من ألم ومعاناة وصراع، وهي أصل المأساة أو المسرحية التراجيدية»[٤].

لو أوغلنا أكثر مما سبق عرضة بغية معرفة أصل التسمية «تراجيديا»، لرأينا أن لها علاقة بتموز، فالكلمة مركبة من قسمين «تراجوس»، بمعنى العنز، و «أويديا»، بمعنى أغنية، ومن ثم يكون معنى المصطلح «الأغنية العنزية»، إذ «كان من الأمور المألوفة آنذاك أن تصنع ملابس الرعاة والفلاحين من جلد الماعز»[٥]. ومن الجلي أن عالم الرعاة يرتبط بمهنة تموز حسب الأصل العراقي[٦].

١- الأحمد، سامي سعيد؛ حضارة الوطن العربي كخلفية للحضارة اليونانية، بغداد، 1980، ص 64.
٢- لطفي عبد الوهاب يحيى؛ اليونان، بيروت 1979، ص 179.
٣- موسوعة المعرفة، بيروت، 1984، م 5، ص 771.
٤- لطفي عبد الوهاب يحيى؛ اليونان، بيروت 1979، ص 190-191.
٥- المصدر السابق، ص 195.
٦- الشمس، ماجد؛ «تموز وعشتار يصنعان الفصول» مجلة آفاق عربية، بغداد، 1985، العدد - 7.

ولكن رب سائل يسأل متى دخلت قصة تموز - دايونيسوس مدينة أثينا بالذات لتمسي جزءاً من المسرح؟ لقد كان ذلك «في الشهر التاسع شهر الأفيبوليون Elophebolion يقع عيد ديونيزيا الكبير الذي أوجده بيستراتس[1] في عام 534 (ق.م). وفي ذلك العام جعل تسييس المسرحية في أثينا جزءاً من هذا الاحتفال. وكان ذلك في أواخر شهر مايو، والربيع مقبل والبحر هادئ صالح للملاحة»[2].

لم يكن المسرح مكاناً تمثل فيه الأدوار فحسب، فقد حوت ساحة الرقص «الأوركسترا» مذبحاً لقرابين ديونيسوس[3]. وهذا الأمر يشير إلى آصرة أخرى بين قصة تموز ونشوء المسرح.

لنأتِ إلى ناحية مهمة في الموضوع تتلخص بمبررات نشوء المسرح بشكله المنسوب إلى اليونان:

لقد سبقت الإشارة إلى ارتباط نشوء المسرح بطقوس تموز، وهو أمر ليس فيه أدنى شك. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يبتدع أبناء الوطن العربي المسرح بالصيغة المعروفة؟

عندما نريد الإجابة عن السؤال المطروح ينبغي بحث ما يلي:

1- فرق الظرف المناخي بين الوطن العربي وبلاد اليونان بجزأيها في غرب بلاد الأنضول وشبه جزيرة اليونان.
2- تقصي الفروق القائمة بين تبني شعب خالق لأسطورة وآخر مقتبس لها، ولا سيما بعد زمن بعيد من نشوئها.

فيما يخص النقطة الأولى الأمر واضح وبيّن، إذ إن أجواء مصر والعراق وسوريا جافة عموماً وحارة لمدة طويلة من السنة، كما إنها معتدلة أحياناً وقليلة المطر بشكل عام. ومن ثم هل ستحتاج قصة تموز - أوزيريس إلى مسرح تمثل فيه كل عام لاستجلاب خيرات الطبيعة بموجب السحر الانجذابي[4]. الجواب:

١- بيستراتوس: أحد الطغاة اليونان الذي خرق دستور صولون في شبابه. تزعم حزب العامة، إلا أن جماعتين من حزبي الساحل والسهل اتحدت وطردته من البلاد عام (556 ق.م)، ثم عاد عام (550 ق.م). وأخرج ثانية بعد عام، وعاد سنة (546 ق.م)، إلا أنه قام بعد ذلك بأعمال إصلاحية كثيرة. وتوفي عام (527 ق.م).

٢- ديورانت؛ قصة الحضارة، (ترجمة محمد سعيد بدران)، القاهرة 1969، ج 1، م 2، ص 363.

٣- حتي، فيليب؛ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، بيروت، 1958، ص 2-3، 2-4.

٤- السحر الانجذابي أو التعاطفي: ممارسات عرفها الإنسان في معظم بقاع الأرض إن لم نقل جميعها، وقد اتخذ أشكالاً عديدة للعمل به، أهمها التأثير في جزء من الشخص أو الحيوان كأظافره وشعره أو وما يستعمله ويرتديه. في حالة الحيوان، فإن التأثير في أحد أجزاء جسمه كعظامه بغية صيد أمثاله. ومارست شعوب عديدة رسم صورة السهم أو الحيوان للتأثير فيه، ما دامت الصورة تحمل خصائص الأصل. وفي فترات تالية استخدم اسم الشخص واسم والديه للتأثير فيه ما دام الاسم يحمل دلالة

لا حاجة لذلك لسبب بسيط، هو أن الطبيعة في الوطن العربي هي المسرح الشامل والأصيل التي تؤدى فيه الأدوار. أما فيما يتعلق بالأمكنة التي سكن فيها اليونان فإنها مطيرة وباردة لأشهر عديدة من السنة، وبالتالي لم يكن سهلاً تأدية طقوس تموز في العراء. ومن جهة أخرى، يمكن للطبيعة الجبلية والوديان التي تكتنفها أن تحل فكرة المسرح، حيث سفح الجبل مكان جلوس المشاهدين والوادي أو السفح المقابل والقريب محل تأدية الأدوار. وبمرور الوقت يبدو أن هذا الشكل تمكن من اليونان ليمسي قابعاً بين جدران مبنية.

أما إذا أتينا إلى النقطة الثانية، فإن الفرق واضح بين حالتي ابتداع شعب لأسطورة وآخر متبنٍّ لها، لأنها في الحالة الأولى تكون أكثر مضاء فيه لأنها نشأت في محيطه، وبالتالي حاوية شاملة لمعاناته، لذا أوجد لها حلولاً حسب عقليته ونمط تفكيره، في حين يجعل الثاني منها أسطورة أصغر حجماً لدرجة أنها تمثل على عتبة مسرح ولا تحتاج برأيه لأكثر من ذلك، حسب طقس رمزي يمكن أن يؤدَّى داخل جدران محددة بدلاً من الطبيعة المعطاء مترامية الأرجاء.

حامله. ومما له علاقة بالسحر الانجذابي مبدأ المحاكاة، إذ بإمكان قبيلة أو أسرة أن تتخذ حيواناً ما رمزاً أو «طوطماً» لها أن تحصل على قوته عن طريق محاكاة حركاته وتقليد شكله العام بارتداء ما يناسبه ويماثله.